قادمة من بعيد

ليس مما يليق ألا تبادل زائرها الحديث. وتكتفى بإشارات وهزات متتالية من رأسها، وابتسامة ممطوطة متكلفة. كان يتكلم وهو يسمع صوته صاخباً فى أرجاء غرفة الصالون. تبريره الوحيد للاستمرار انها لا تعترض، سمح لنفسه بعد فترة من الحديث أن يبدأ فى استجوابها وانتظار الإجابة ثم تخطى الحاجز النفسى المباشر وقفز إلى ندائها باسمها مجرداً بلا لقب آنسة.

مروة سمعت من زوج خالتى انك تعملين فى منزل السحيمى الأثري، تضايقت من انه لا يعرف وظيفتها كمفتشة آثار. تكلم عن مكان عملها وكأنه لا يعرف أى قيمة له، انتظرت أن يبادر بالتصحيح أو الاستيضاح الا انه لم يفعل بل استمر يتنقل من موضوع لآخر. أوقفته بإشارة من يدها، أستاذ محسن ماذا تعرف بالضبط عن وظيفتي، بهت للحظات ثم قرر ان يفتى فقال أعرف إنها وظيفة عظيمة، لا يزعجك فيها أحد، تقابلين مهتمين ودارسين للآثار الإسلامية من الأساتذة أو السياح وربما تشرحين أهمية الأثر مثلاً.

ثم أكمل: الواقع إنها وظيفة مطمئنة للغاية أفكر ألا أجعلك تتركينها بعد الزواج قاطعت: ومن قال إننى سوف أترك وظيفتى بعد الزواج، بل ومن قال إننى أوافق أصلاً على الزواج بك-: آه فى هذه الحالة اكون قد تسرعت فى استنتاج موافقتك. حقك فأنا اقابلك لأول مرة وطبعاً هذا زواج صالونات ولست مطالبة بابداء الرأى حالاً نظرت حولها وخلفها. الصالة وراءها ازدحمت بأهل العريس وهداياه وثرثره التعارف. تركوهما يحاولان معاً الوصول إلى نقطة تلاق. اطمأنت إلى أن احدا لا يسترق السمع. لا يحسون بأى توتر. لديهم يقين بتمام الموضوع. البنات بالملايين من كل لون وشكل بلا. الأمر لا يشغلهم كثيراً. فجرت قنبلتها بهدوء شديد. اخشى اننى لا اصلح لك. ابتسم فى مكر اطل من عينيه اللامعتين وقال أنا اعرف ما يصلح لى وليس لك ان تدخلى رأسى وتنبئينى عن نفسى قولى عن نفسك، بوغتت بهجومه.

: نعم معك حق أنا لا أريد الزواج، منى بالذات أم على الاطلاق لا ليس منك بالذات، لا أريد الزواج الآن، عظيم إذن متى تريدين الزواج هذا ليس موضوعك، ليس موضوعى لا أنت قلت إنك لا ترفضين الزواج منى بل ترفضين الزواج؟ الآن إذن هو موضوعى لأننى موافق على ألا يتم الزواج الآن، احست بحصاره وتحفزه وأن المناقشة الموضوعية الهادئة قد تنقلب إلى حوار عالى التردد، سلمت بوجهة نظره وقالت فى استسلام بعد عام على الأقل من الآن.

بعد عام تعنين ليس هذا العام لماذا؟ أسباب العمل والدراسة أنا أحضر رسالة فى تخصصى صعبة تشغل وقتى ولا أريد أن يعوقنى زواج: خلاص موافق تتم خطوبتنا هذا العام والقادم الزواج والدخلة ولن استعجلك فى شئ. ولكنى لم اوافق بعد. لا يا مروة انت وافقت واشترطت وانا قبلت الشرط وعلى العموم تعلمين اننى اعمل فى ابو ظبى ولن انزل اجازة الا العام القادم فلا تعقدى الأمور. استسلمت لمنطقه. فرض عليها الحوارات، وقنا عند هذا الحد قام إلى الأهل وأعلن وسطهم الاتفاق. تلقيا التهانى والفرحة وقفا وقرءا الفاتحة قالت لها أمها إنه لطيف خفيف الظل. أحبه أخوتها. قال لها أبوها إنه راجل فى تصرفاته انظرى كيف أنهى كل المحادثات عن العفش والمهر والمؤخر بالأصول والعرف ولم يسمح لأحد من أهله بالتدخل فى الحوار، حتى زميلاتها أثنين عليه وعلى تفهمه وما أحاطها به من احترام وهو يزورها فى منزل السحيمى الأثرى ويتجول به ويوزع على الجميع هدايا صغيرة من الشيكولاتة الفاخرة احتفاء بالخطوبة. وحدها ظلت مترددة.

تشعر بأن سيطرتها على حياتها قد انتقلت إليه. فجزئ الحرية فى أمورها الشخصية اصبح له فيه رأي، رأى نافذ المفعول كالفرمان السلطاني، لم يحاول ان يخفى هذا، تصرف كأمير من البيت المالك لأمرها، وأصبح شغله الشاغل خلال الإجازة، انتظارها بعد العمل ليقوم بأخذها إلى أى مكان تتمنى أن تزوره.

برغم زحمة القاهرة وبعد المسافة بين الأزهر والبيت كان غالباً ما يصل فى التوقيت المناسب وغالبا ما يوصلها لبيتها بعد الفسحة فى فترة السماح والمسموح، وحدها ظلت تحس قيدهُ فى عنقها برغم الشبكة الغالية التى ألبسها إياها يوم الخطوبة. وحدها ظلت تراه غير مطمئن يخفى وراء وجهه اللامع البشوش شخصية صارمة تحكميه. يقرن ذلك بالتنفيذ عبر سلسلة من الخطوات الصغيرة الجريئة ليقتطع فى كل مرة جزءا من حريتها لصالح خضوعها له وبالتدريج دارت فى فلكه، أصبحت تفكر فيه، سافر لعمله بنهاية الشهر. ترك فراغاً كبيرا لم يبدده اتصال أو ثلاثة فى اليوم، ارسل لها بريده الإلكترونى الخاص بها وحدها. بحثت عن نت كافية جيد لتتواصل معه عبر الشبكة، وتدخل مع عالم الدردشة الطويلة كل يوم، الآن تزوره على الشاشة عبر السماوات المفتوحة تراه ويراها من خلال كاميرا ديجيتال متطوره ترصد كل شئء حتى الأحلام. ترى المنزل الذى يسكنه والطعام الذى يطبخه والشوارع والبيوت. تعيش معه عشر ساعات يومياً، عبر الإنترنت. حتى اصدقائه فى الغربة البعيدة تعرفهم، عرفها عليهم، يشاركها مشاكل اليوم ويبحث لها عن مواقع قد تفيد منها فى رسالتها.

زارا معاً مواقع فى بلاد كثيرة طرقا معاً آثارا اسلامية فى الهند حتى حدود التبت ووسط آسيا حتى الفولجا. ذكرتهما بفسح أيام الخطوبة فى القاهرة. واقعان متوازيان يعيشانه عبر خطوط الأتصال

عبر رسائل طويلة قادمة من بعيد تعبر جدران العالم المرئى وتتلاشى الصور امام الشاشة لتحل محلها علامات انتهاء الإرسال. أهكذا سنعيش بعد الزواج شهرا أو شهرين والباقى عبر الهواء. طائرة لا تحط فى الواقع، على أرض خيالية لا تلمس أو تحس عبر خطوط الكاميرا والميكروفون وسماعة التليفون ورسائل مقتضبة لاهثة تنتقل فى التو واللحظة، ضحك لها كثيرا. لم يجب على السؤال، أرسل لها علامة. من علامات السوفت وير.